لا تُغضب غاليًا

أبوفهد زميل عمل يبلغ من العمر نحو ٥٠ عامًا، في ليلة بمناسبة سَكَنِه في منزل جديد أقام مأدبة عشاء للزملاء، فلبّيت الدعوة، وليتني لم أُلبِّها، يعلم الله أني ندمت على ذهابي.

تابعوني، وسأقول لكم لماذا ندمت، تجمع الزملاء، وذهبنا إليه في منزله، بيننا المسنّ والشاب، لفيف من الزملاء، فاكتظ بنا مجلسه، ثلاثة من أطفاله أخذوا مكانًا في طرف المجلس: محمد وأنس ومعاذ، كان أبوفهد يصبّ القهوة بشوشًا ضاحكًا فرحًا، فأتت اللحظة الحاسمة التي قلبت كيانه، وقلبت فرحه إلى حزن، فقد أبكيته دون أن أعلم ما يخفي هذا الخمسيني.

لم يرق لي صبّ أبي فهد للقهوة، كبير في السن، ويصبّ القهوة لنا! فذلك لم أتعود عليه في محيطي، فألححت عليه؛ كي أصب القهوة، لكنه حلف، وأجبرني على الجلوس، قلت له ممتعضًا: أين فهد؟ فلماذا لا يأتي ليقابل الضيوف، ويساعد أباه؟ لم أكن أعرف عن فهد إلا أنه ابنه البكر، ولهذا أُطلق عليه «أبوفهد».

كنت منتقلاً حديثًا إلى الإدارة، ولم أعرف أسرار الزملاء، ولا أي أمر خاص بهم، كانوا بالنسبة إلي صناديق مغلقة، لا أعرف عن حياتهم الخاصة أي شيء، عندما سألت عن فهد صمت المجلس عن بكرة أبيه، وتغيّرت ملامح أبي فهد، واختفت الابتسامة، وأُلجمت الألسنة، فعلمت أني أخطأت.

لاح الحزن في وجه أبي فهد، بعد أن وضع الدّلّة على الطاولة، وخرج من المجلس، وتبعه أطفاله الثلاثة.

التفت إلي زميلي الذي يجلس بجواري، فقلت: ماذا حدث؟

قال: فهد ميت، وأنت أخطأت. قلت: متى؟ قال: منذ عشر سنوات. يا إلهي، عشر سنوات، ومازال يذكره، يا لرقتك يا أبا فهد!

عاد أبوفهد، بعد أن أفرغ ما به، وآثار البكاء بادية على وجهه، فتعشينا، وأصررت أن أبقى، حتى رحيل آخر الضيوف، وأقدم له العذر، وبالفعل عندما رحل آخر الزملاء اقتربت منه، وقلت: أنا آسف، لم أعلم أن فهدًا ميت، فهذا قدره، وهو طريق سيمشيه الجميع. التفت إلي، وقال: حصل خير، لا تعتذر، فذكراه لا تغيب، قلت: ولكن يا أبا فهد، عشر سنوات، وأنت تبكيه، أين الإيمان بالقدر؟ قال: أنا مؤمن

بالقدر، حـزني لم يكن للوفاة، فقد فقـدت معه طفلة أخرى في حادثـة وقعت لنا، ونحن عائدون مـن أبها في طريقنا إلى الرياض في إحدى الإجازات الصيفية، ولم أبكِها، كما بكيته، فقـد مات وهـو يبكي، مـات بعـد أن أغضبته، مـات بعد أن ضربتـه، لم يسعفني القدر لضمّه، لم يسعفني القدر لتطييب خاطره، لم يسعفني القدر لمسح دموعه.

كان أبوفهـد قادمًا من أبها بصحبـة عائلته، وكان فهد الـذي عمره عشـر سنوات في المقعـد الخلفي يلهـو، ويسبب إزعاجًـا لوالـده، لم يحتمـل أبوفهـد الأمر، وأنـزل العقال، وضربـه ضربًـا مبرحًـا، فبكى فهـد، وتألم والـده، فقال في نفسه: سأرضيه في الرياض!

وقعـت الحادثة، وفهد يجهش بالبـكاء، مات فهد وطفلة رضيعـة، وأصيبـت بقيـة العائلة، ونقلـوا إلـى الرياض على طائرة إخلاء طبي.

يقـول أبوفهـد: ليتـه يعـود لو ساعـة، مـات والحسرة في صدري، فقط أرغب في ضمّه ومسح دموعه، أنا مؤمن بالقضاء والقدر، ولكن مازالت الحسرة في قلبي، مات وهو غاضب، مات وهـو باكٍ، مـات دون أن أضمّـه إلى صـدري، وأطيب خاطره، ليـت الليالي تعود، نقسو علـى من نحب، ونـردّد: الأيام كفيلة بإرضائهم، ولا نعلم أن الموت ربما يكون له رأي آخر.

وقفة: قريب لي ماتت والدته، وهي غاضبة عليه، ماتت وهو يُسوّف، ويقول: غدًا أطيب خاطرها، ماتت قبل غدٍ، وبقيت الحسرة في صدره منذ موتها، ولن تتركه الحسرة إلّا برحيله، وزوج خرج من بيته، وقد أغضبته زوجته، وكانت قبلة الصباح كفيلة بأن تذيب جليد هذا الغضب، كرامتها أبت عليها قبلة الصّباح، وقالت: أخبّئها له حين يعود، لكنه خرج ولم يعد! زوجة تركها زوجها بين جدران بيتها تموت كمدًا وظلمًا، خرج وعناده يؤزّه ألّا يطيّب خاطرها، وهو عند عتبة الباب عائدًا كان يخبّئ لها وردة مخمليّة، لكنه دخل، فوجدها مسجّاة على فراش الموت! وابن عاقّ يدفع باب البيت بقوة، ومن خلفه أم تبكي أو أب يندب حسرة، فيؤجّل أن ينطرح عند قدميهما يقبّلهما إرضاءً واعتذارًا، وقد أغلق الباب، وهو يحدّث نفسه: حينما أعود أرضيهما، لم يعد إلّا على صوت هاتف يهاتفه: أعظم الله أجرك فيهما!

خاطرة: لي ولك ولكل إنسان يحمل بين جنبيه قلب إنسان: تذكر دائمًا، لا تُغضب غاليًا عليك، ثم تؤجّل إرضاءه إلى غد!